الفصل الثاني

عصر الأسرات المبكر
أو العصر العتيق

الأسرتان الأولى والثانية (٣٢٠٠ – ٢٧٨٠ ق.م.)

- الأسرة الأولى (٣٢٠٠ – ٢٩٨٠ ق.م.)
- الأسرة الثانية (٢٩٨٠ – ٢٧٨٠ ق.م.)

الملك مينا

obeikandl.com

عصـــر الأســـرات المبــكر
أو العـصر العتيق

الأسـرتان الأولى والثانية (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ قبل الميلاد)

لم تمدنا الوثائق المصرية حتى الآن بما يكفى من أدلة لمعرفة ما حدث فى تلك الحروب التى كانت بين الجنوب والشمال وأدت إلى إعادة توحيد مصر ، فإن كل معلوماتنا مستمدة فقط من تلك الآثار القليلة للملك العقرب وما ماثلها من آثار ذلك العصر.

وكان المصريـون منذ أيام الدولة الحديثة يذكرون على آثارهم اسم ملك يسمى « منا » كأول ملوكهم ، وذكروا ذلك أيضا لهيرودوت ونص عليه مانيتون فى تاريخه ، كما كان المصريون أيضا يكتبون أسمه على جعارينهم تيمناً به ، ولكننا لم نعثر على مثل هذا الإسم على آثار الملوك الأوائل [١] ؛ وكل ما يمكننا تقديمه من فروض هو أنه ربما كان إسما آخر للملك المعروف لنا باسم « نعرمر » [٢] الذى عثر له على بعض الآثار المهمة فى هيراقونپوليس (الكوم الأحمر شمال أدفو) وفى أبيدوس ، وأشهرها لوحته الشهيرة التى توجد الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة . ويكاد يتفق جميع المؤرخين الآن على إعتبار « نعرمر » أول ملك فى الأسرة الأولى ، وأن « منا » ليس إلا إسما آخر لم نعثر عليه حتى الآن . ونرى على وجهى لوحته منظرين يختلفان فى تفصيلهما ولكنهما يتفقان فى الهدف ، وهو تسجيل إنتصار هذا الملك على أعدائه . ففى أعلى اللوحة – فى كل من الوجهين – نرى إسمه « نعرمر » مكتوبا داخل

مستطيل يمثل واجهة القصر وعلى يمين الاسم ويساره رسم لرأس المعبودة حتحور بوجه إنسانى وأذنى وقرنى البقرة . وعلى أحد الوجهين ، وهو الخلفى منهما ، نرى الملك واقفا وعلى رأسه تاج الجنوب يقبض على ناصية عدو راكع أمامه إسمه « واع – شى » ، وقد رفع فى يده اليمنى دبوس قتاله ليهوى به على رأسه . وأمام الملك ، نرى المعبود حورس على شكل صقر يقبض بيده على حبل يجر به رأس عدو له يعلوه ستة أعواد من نبات البردى يمثل كل منها عدد ألف أى أن المعبود حورس مكنه من أعدائه وسلم إليه ستة آلاف أسير من بينهم . ويمشى خلف « نعرمر » أحد أتباعه وقد حمل فى يده اليمنى إناء ، وفى يده اليسرى يحمل خفى الملك . وفى أسفل اللوحة نرى اثنين من أعدائه وفوق كل منهما إسمه . أما الوجه الآخر فيختلف إذ يحتل الجزء الأوسط منه رسم حيوانين إستطالت أعناقهما والتفت حول بعضهما فتركت دائرة بينهما ، وقد أمسك بعقود كلا من الحيوانين أحد الأتباع ليجذبه بعيداً عن الآخر . وفى الجزء الأسفل من اللوحة نرى ثوراً – وهو تمثيل أيضا للملك – يحطم بقرنيه أحد الحصون وقد إرتمى شخص يمثل أصحاب هذا الحصن تحت قدمى الثور . أما الثلث الأعلى من اللوحة فيملأ فراغه منظر آخر نرى فيه نعرمر وقد إرتدى تاج الشمال ويمشى وراءه ذات الموظف الذى نراه على الوجه الآخر ، ونرى موظفا ثانيا يسير أمامه وقد تقدمه أربعة من الأتباع يحملون أعلام أربعة من الآلهة ، وأمام تلك الأعلام خمسة صفوف فى كل واحد منها جثتان لشخصين قطعت رؤوسهما .

ولا شك فى أن المناظر التى على هذه اللوحة تسجل إنتصار « نعرمر » فى الحرب ، وتسجل أيضا إحتفاله بذلك النصر وقد وضع على رأسه تاج الشمال . وبالرغم من أن إسمه مكتوب فى أعلى هذا الوجه فإن الفنان أراد أن يؤكد لنا مرة أخرى أن ذلك الذى يلبس تاج الشمال ليس إلا « نعرمر » فكتب أسمه مرة أخرى أمام وجهه .

لقد أشرنا إلى المناظر التى على رأس دبوس الملك العقرب ، وهى تسجل أيضا إنتصاره فى حرب ضد أهل الدلتا وسكان الصحراء ، ولكنا رأيناه يلبس تاج الصعيد فقط ، فلعل « نعرمر » هو الذى أتم ما بدأه غيره من جهد وأنه أخضع الدلتا إخضاعا تاما ، وكان بذلك أول من توج من ملوك الصعيد ملكا أيضا على الدلتا ، ومما يرجح هذا الفرض أن الرسوم التى على دبوس قتاله ، الذى عثر عليه أيضا فى هيراكونبوليس، ترينا مناظر الإحتفال بتتويجه ملكا على الدلتا إذ نراه يلبس تاج الشمال ويجلس على العرش وقد اصطف وراءه كبار الموظفين ، وتحلق فوق رأسه الرخمة وهى إلهة الكاب لحمايته ، ووقف أمامه حملة أعلام الآلهة الأربعة كما نقرأ أيضا

أعداد مئات الآلاف التى استولى عليها من الماشية والماعز ، وكذلك الأسرى من الناس .

وعثر على آثار أخرى لهذا الملك عند حفر مقابر أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ، ويثير هذا الأمر نقطة مهمة فى التاريخ المصرى . فليس قبر نعرمر هو القبر الأوحد فى أبيدوس ، بل هناك مقابر أخرى لملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية مما يثبت لنا أن تلك العائلة التى نشأ منها ، نعرمر ، إتخذت عاصمة لها على مقربة من ذلك المكان ، وأن العاصمة القديمة ، نخن ، (الكوم الأحمر شمالى أدفو) أصبحت عاصمة دينية فقط . كانت العاصمة الجديدة على مقربة من أبيدوس وتسمى ، ثنى ، ومكانها يجب ألا يكون بعيداً عن الجبانة الملكية ولكنا لا نعرفه على وجه التحقيق حتى الآن (١) .

كانت ، ثنى ، هى أول العواصم المصرية فى عهدها الجديد ، وظلت طيلة أيام الأسرتين الأولى والثانية عاصمة للبلاد والمقر الرسمى للملوك ولو أن ملوك هاتين الأسرتين كانوا يقيمون من آن لآخر فى الشمال ، فى مدينة كانت تسمى ، القلعة البيضاء ، نسبوا إنشاءها فيما بعد إلى الملك ، منا ، وهى التى سماها المصريون فيما بعد مدينة ، منف ، .

وسواء أكانت تلك المدينة الشمالية قد أنشئت حقا فى عهد ، منا ، أو أنها أنشئت فى عهد أحد خلفائه ، وسواء أصح ما زعمه المتأخرون من أن منا حول مجرى لنيل لينشىء هذه العاصمة الجديدة أو أن الأمر لم يعد حفر ترعة أو عمل مشروع صغير من مشروعات الرى ، فإن إختيار الموقع كان ذا أهمية كبرى لحكم الشمال والجنوب إذ أن المكان الطبيعى لعاصمة مصر يجب أن يكون على مقربة من المكان الذى تلتقى فيه الدلتا بالصعيد ، وهو موقع أكثر عواصم مصر المهمة فى جميع العصور منذ عهد ، منا ، حتى الآن .

ومنذ حفر أميلينو (Amélineau) ويترى (Petrie) فى أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ووجدوا فى مقابرها كثيراً من الآثار المهمة تحمل أسماء ملوك الأسرة الأولى

كان الاعتقاد السائد حتى عام ١٩٢١ أن مقابر أولئك الملوك كانت هناك . ولكن حدث بعد ذلك أن عثر الأثريون على أسماء بعض أولئك الملوك أيضا فى مقابر فى طرخان (جنوبى كفر عمار) وفى سقارة ، ثم أخذت مصلحة الآثار منذ عام ١٩٣٠ تحفر بانتظام فى المنطقة البحرية من سقارة فوجد فيرث (W.C.Firth) بعض المقابر ثم تولى إمرى (W.B.Emery) إتمام حفر تلك المنطقة منذ عام ١٩٣٥ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية ووجد عددا من مقابر الأسرة الأولى هناك ، وعثر فيها على أسماء جميع ملوك الأسرة إبتداء من « عجا » ما عدا مقابر « چت » و « قا – ع » و « سمرخت » ، كما عثر على مقابر بعض كبار الموظفين مثل « حما كا » . وهنا ظهرت المشكلة الرئيسية التى لم نصل إلى حل لها حتى الآن . لم يعثر پترى أو أميلينو على أى شىء فى أبيدوس يثبت أن ملوك الأسرة الأولى دفنوا حقا فى تلك المقابر كما اتضح أيضا أن مقابر سقارة أكبر وأفخم من مقابر أبيدوس ، ففى أى المنطقتين دفن هؤلاء الملوك إن كانت مقابر سقارة قد أقيمت حقا لأولئك الملوك وليس لوزرائهم الذين كانوا يقيمون فى العاصمة الجديدة فى الشمال ؟ .

وأراد كثير من الأثريين وعلى رأسهم إمرى أن يرى فى مقابر سقارة المدافن الحقيقية لأولئك الملوك وأن مقابر أبيدوس لم تكن إلا أضرحة أو نوعا من المدافن التى تقام لتخليد الذكرى فقط فى جبانة عاصمة إقليمهم الذى نشأوا فيه .

وعاد إمرى مرة ثانية لاستئناف حفائره فى عام ١٩٥٣ وعثر على مقبرتين ملكيتين إحداهما فيها أشياء كثيرة من عصر الملك « چت » والأخرى فيها أشياء أخرى من عهد الملك « قا – ع » ، وكلاهما أكبر كثيراً من مقبرتيهما فى أبيدوس .

واستمرت حفائر إمرى حتى عام ١٩٥٥ وأمدتنا بالكثير من آثار الأسرة الأولى، وألقت كثيراً من الضوء على تاريخ ذلك العصر وحضاراته ، وجلت كثيراً من النقط الغامضة ، ولكن رغم كل هذا فإن إمرى لم يجد سواء فى حفائره قبل عام ١٩٣٩ أو بين ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ أى دليل قاطع على أن ملوك الأسرة الأولى كانوا يدفنون فى سقارة ، وفى بحث ظهر له فى عام ١٩٥٥ نراه يفضل ترك الباب مفتوحا ويختم مقاله بقوله « ولكنا لم نجد حتى الآن الدليل النهائى على أنها (أى المقابر) هى المدافن الحقيقية للملوك ولابد من عمل حفائر أخرى قبل أن نتمكن من الوصول إلى التأكد الكامل » (١) .

وقبل أن نتحدث على ما ظهر من آثار لملوك الأسرتين الأولى والثانية وما وصلت إليه حضارة مصر فى ذلك العهد البعيد يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم ما نعرفه عنهم . فقد كان « نعرمر – منا » أول ملوك هذه الأسرة ، وقد عثر على قبر له فى أبيدوس ، وجاءت أهم آثاره من معبد نخن فى هيراقونپوليس (الكوم الأحمر) كما ذكرنا ثم تلاه على العرش الملك « عحا » (معناها المحارب) ، وقد عثر له على قبر فى أبيدوس وعلى آثار باسمه فى قبر آخر أكبر منه فى سقارة ونرى على آثاره إشارات كثيرة إلى حروب ضد الليبيين والنوبيين ، وإلى احتفالات دينية وبخاصة ما يتعلق منها بمراسيم تتويجه ، وتشير كذلك إلى تشييد بعض المعابد للمعبودات وبخاصة للمعبودة « نيت » التى كان مقر عبادتها فى مدينة صا الحجر فى غربى الدلتا ، وكانت زوجته تسمى « نيت – حتپ » وربما كانت من أهل تلك المدينة .

وجاء من بعد « عحا » ملك آخر وهو الملك « جر » وتمتاز آثاره بكثير من التقدم الفنى ، ولأمر ما اعتقد المصريون القدماء فى العصور التالية أن قبره فى أبيدوس هو قبر المعبود أوزيريس وكانوا يحجون إليه ويقدمون القرابين له حتى كشفت عن حقيقته حفائر أميلينو فى أواخر القرن الماضى .

ويظهر أن « جر » لم يكن أقل من سلفه « عحا » فى نشاطه الحربى ، فقد عثر فى عام ١٩٤٩ على إسمه مكتوباً على صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة من بوهن أمام وادى حلفا وهو يسجل هناك انتصاره على أهل النوبة ، ويدل ذلك على اهتمام ملوك الأسرة الأولى بتأمين حدود مصر الجنوبية وفتحهم المنطقة الواقعة جنوبى الشلال الأول لأجل التجارة مع السودان (١) .

وفى عهد خلفه الملك « واچيت » أو « جت » نرى أن سياسة التوسع التجارى ، وربما أيضاً استغلال المناجم لم تقل ، وأن أولئك الملوك اهتموا بدروب الصحراء وتأمين التجارة فيها إذ عثر على إسم هذا الملك مكتوباً على صخور أحد تلك الدروب

التى كانت تربط بين إدفو والبحر الأحمر (٢) وهو الدرب المار بوادى مياه ، والذى ظل مستخدماً فى جميع العصور سواء للتجارة أو الحصول على بعض معادن تلك المنطقة وبخاصة الذهب .

كانت مصر قد وصلت إلى حد غير قليل فى مضمار التقدم فى عهد الملك «جت» ، ولو دققنا فى فحص مخلفات عصره نرى أن كثيراً منها قد بلغ فيه الإتقان حداً يجعل منها تحفاً فنية مثل لوحته التى توجد الآن فى متحف اللوفر . وقد عثر على قبر له فى أبيدوس وعلى قبر آخر فى سقارة ، أما المقبرة التى عثر عليها فى نزلة البطران على مقربة من أهرام الجيزة والتى ظهر فيها إسمه مكتوباً على بعض مافيها من قطع أثرية فربما كانت لأحد أفراد عائلته أو كبار موظفيه .

أما خامس الملوك وهو الملك « دن » (١) قد عرفنا عنه الكثير ، ليس من مقابره أو مقابر معاصريه فحسب بل من حجر بالرمو أيضاً ، ونرى أنه قد اتخذ لنفسه لقباً جديداً باستخدام نبات السبوت رمزاً للصعيد والنحلة رمزاً للدلتا . كما نعرف أيضاً أنه حارب البدو الذين فى شرقى مصر ، كما نرى بعض تفاصيل احتفاله بعيد يسمى عيد « السد » أو الاحتفال الثلاثينى الذى لعب دوراً كبيراً فى حياة الملوك المصريين ، وعقيدة الألوهية الملكية .

كان هذا الاحتفال معروفاً فى مصر دون شك قبل الأسرة بزمن كبير ، ويرجع أصله إلى عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتى الآن ، وهى تحديد ثلاثين سنة لحكم أى زعيم ؛ لأن رخاء الناس يتوقف على قوة ذلك الزعيم . فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه فى حفل دينى . وما زلنا نرى حتى اليوم بعض القبائل الإفريقية تضع حداً لحياة زعمائها ، كما تقدم البعض الآخر فى تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشترى بذلك سنوات أخرى من الحياة . وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل على سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد ، أو تقديم قرابين خاصة فى حفل خاص يثبت

فيها هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة (٦) .

ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعه فى مصر فى وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلى مرحلتها الأخيرة وهى تجديد الحق فى البقاء فى الحكم قبل أن تنتهى فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك فى احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المبانى الخاصة ويقيم لبعض المعبودات معابد أو هياكل . وظل ملوك مصرة منذ الأسرة الأولى حتى آخر أيام حضارتها مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نرى الإشارة إليه ، ونرى بعض مناظر طقوسه ، على جدران المعابد فى جميع العصور حتى ما شيد منها فى أيلم الرومان .

وأهم الآثار من عهد الملك « دن » هى مقبرة « حماكا » فى سقارة ومقبرة زوجته « مريت – نيت » فى أبيدوس . وخلفه على العرش إبنه « عج – إب » الذى احتفظ لنا حجر بالرمو بالشىء الكثير عن حوادث عصره ومنها حروبه وأحتفاله بعيد « السد » ثم أمره بعمل إحصاء شامل فى البلاد كان يتكرر كل عامين .

ونعرف أيضاً من حجر بالرمو ومن الآثار الأخرى شيئاً غير قليل عن « سمرخت » ، وأهم شىء يتصل باسم هذا الملك هو بدء المنازعات واغتصاب العرش بين أفراد البيت المالك مما كان سبباً لقرب إنتهاء حكم هذه العائلة ، والأمر الثانى هو ترديد إسمه فى المؤلفات الأثرية على أنه صاحب النقش الكبير فى وادى المغارة بسيناء (١) . ولكنى أعتقد أن ذلك النقش لا يمكن أن يكون من عهد الأسرة الأولى وإنما هو للملك « سخم – خت » الذى تولى الملك بعد زوسر فى الأسرة الثالثة والذى أراد تشييد هرم مدرج آخر فى سقارة عثر عليه عام ١٩٥٤ .

وآخر ملوك هذه الأسرة هو الملك « قا – ع » وقد عثر له أيضاً على آثار فى قبر أبيدوس ، وكذلك فى مقبرة كبيرة فى سقارة كتب اسمه على كثير مما بقى من محتوياتها ، وتمدنا تلك الآثار بعدد وافر من أسماء موظفيه والوظائف التى كانوا يتولونها ، ونعرف من هذه الوظائف شيئاً غير قليل عن تنظيم إدارة البلاد فى ذلك العهد إذ كان بعض أولئك الموظفين مشرفا على أعمال الرى أو جباية الضرائب أو حفظ السجلات وغير ذلك .

ملوك الأسرة الثانية - (٢٩٨٠ - ٢٧٨٠ ق. م .)

ونحن نجهل تماماً الأسباب التى دعت إلى تغيير هذه العائلة أو الحوادث التى جرت فى أيام « قا - ع » وانتهت باعتلاء أسرة أخرى على العرش ، كما نجهل أيضاً الصلة بين العائلتين إذا كان هناك حقيقة انتقال للملك من عائلة إلى إخرى ، ونحن نتبع مانيتون فى تقسيمه للأسرات ، ولا ريب أنه كانت لديه الوثائق الكافية التى تبرر ذلك التقسيم .

وفى الواقع لا نرى أى تغيير ، ولا نحس بأى أثر لانتقال فجائى ، فإن كل شىء استمر فى سيره الطبيعى سواء من ناحية التطور الفنى أو فى تنظيم الحكومة بوجه عام .

وهناك اختلاف كبير بين المصادر القديمة فى ترتيب ملوك هذه الأسرة ، كما أن الأسماء التى وردت نقلا عن مانيتون فى صيغها المكتوبة باليونانية يصعب إرجاع بعضها إلى أصله المصرى .

وعلى أى حال فلم يعثر أحد فى أبيدوس على مقابر بعض ملوك تلك الأسرة مما يرجح أنهم كانوا يفضلون العاصمة الشمالية الجديدة ، وهى القلعة البيضاء ، لتكون مقاما لهم أثناء حياتهم ، وفضلوا أيضاً تشييد مقابرهم على مقربة منها وربما عثر عليها فى سقارة فى المستقبل .

ونرى فيما تركه أولئك الملوك إشارات لقصور يشيدها الملوك بعد العام الرابع من حكمهم ، ومعابد يقيمونها للمعبودات المختلفة وبخاصة « سوكر » وهو من أعظم معبودات العاصمة الجديدة شأناً ، كما نرى أيضاً من أختام موظفيهم إطراد تقدم التنظيم الحكومى ووجود الإدارات المختلفة . ونرى من دراسة جداول أسماء الملوك أننا نعرف منهم ثمانية على الأقل ، ولا شك فى ترتيب الثلاثة الأول منهم وهم «حتب سخموى » و « رع نب » و « نى نتر » كما أننا متأكدون من ترتيب آخر ثلاثة منهم وهم « پرى إب سن » و « خع سخم » و « خع سخموى » . ونعرف أيضاً أن الأمور فى تلك الأسرة لم تسر فى يسر وهدوء وإنما كانت مقترنة بالكثير من المتاعب ولكنا لا نستطيع تحديد تلك المتاعب أو أن نذكر أشياء معينة اللهم إلا عندما وصلت الأمور إلى درجة محاولة التغيير فى نظام الدولة العام ، والثورة على عبادة حورس .

فقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان للمعبود « ست » مركز رئيسى فى الصعيد ولكن انتشار عبادة حورس كادت تطيح به وينفرد كهنته ، وبخاصة عندما أصبح الملوك قبل بداية الأسرة الأولى يمثلون حورس ويعيشون فى ظله ، وأصبح كل منهم ينسب نفسه

إليه . وزاد الطين بلة – بالنسبة للصعيد – أن الملوك فضلوا العاصمة الجديدة عند ملتقى الدلتا بالصعيد ، ومن المحتمل أيضاً أنهم أخذوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم .

وفي كل زمان توجد فئة من المحافظين الذين يتطلعون إلى القديم ويرون فيه المثل الأعلى ، وفي كل زمان أيضا يوجد الرجعيون الذين يعز عليهم إدخال أى تغيير طالما يؤثر ذلك على مصالحهم الشخصية ، ويوجد كذلك في كل زمان ومكان بعض رجال الدين الذين يأبون أن يروا انصراف الناس عنهم ويحاولون استثارة كامن العواطف بين مختلف طوائف الشعب ليبقى لهم نفوذهم وثراؤهم وسيطرتهم .

ومهما قلت معلوماتنا عن النصف الثانى من الأسرة الثانية فإننا نجزم بحدوث رد فعل شديد ضد المعبود حورس وضد نفوذ العاصمة الجديدة . ونرى الملك « پرى – إب – سن » يعلنها حربا صريحة على حورس فيحذف اسمه من ألقابه ويضع بدلا منه منافسه القديم المعبود « ست » . بل يذهب إلى أبعد من ذلك ويفعل ما لم يفعله أحد من قبله أو من بعده وهو وضع رمز « ست » فوق اسمه المكتوب داخل رسم يمثل واجهة القصر ويعلن أنه هو رمزه وأنه تمثل فيه ويذكر فى بعض آثاره أن سست معبود نويت (مدينة أومبوس فى محافظة قنا) هو الذى سلم إليه البلاد .

ولم يقف « پرى – إب – سن » عند ذلك الحد بل عاد مرة أخرى إلى الصعيد، وأبى إلا أن يعود إلى التقليد القديم وهو تشييد قبره فى أبيدوس ، وليس فى سقارة . ومن الأسف أننا لا نعرف رد الفعل الذى حدث فى الشمال فإن ذلك العمل كان خروجاً قوياً على ما سارت عليه مصر من تقاليد منذ بداية الأسرة الأولى على الأقل ، فإن تمثيل الملك بحورس أصبح متأصلاً منذ أجيال ، خصوصاً وأن حجر الزاوية فى استمرار الحضارة المصرية كان قائماً على ألوهية الملك الذى أصبح منذ توليه أمر البلد هو حورس ، وكان يعبد من شعبه على هذا الأساس ، وأصبح واحداً من الآلهة لا يختلف عن غيره من إخوانه ، بل ويمتاز عليهم بأنه كان يحكم الناس على الأرض ويقوم بحفظ النظام وإقامة العدل ويساعد الناس فى مصر على قيامهم بواجبهم لعبادته وعبادة إخوانه من المعبودات .

ثار « پرى – إب – سن » على حورس وعلى القلعة البيضاء ، وما من شك فى أن الكثيرين من أهل الصعيد ، وكهنة ست خاصة ، رحبوا بهذا التغيير ولكنا لا ندرى شيئاً عن حرب أو ثورة ضد ذلك الملك ، بل إن ما وصل من آثاره إلى أيدينا لا يكاد يوضح لنا شيئاً اللهم إلا حذف اسمه من بعض أثبات أسماء الملوك باعتباره خارجاً

على عبادة حورس ، كما فعل الكهنة بعد ذلك بمدة تزيد على ألف وثلاثمائة عام باخناتون ومن حكم بعده من أهله لمحاولته تغيير عبادة أمون فى البلاد ، وتمجيد أتون بدلا منه ومن المعبودات الأخرى .

ولسنا نعرف أيضاً على وجه اليقين كم بقى من سنين على العرش ، وكيف انتهت أيامه ، ولكنا نعرف أن ذلك التغيير لم يدم بعد وفاته وأن الملك الذى خلفه على العرش وهو « خع سخم » عاد إلى عبادة حورس وتمجيده ، وعاد أيضاً إلى النشاط المعتاد وذلك بالقيام بحملات لإخماد ما عساه أن يكون قد قام من فتن فى الشمال لأننا نقرأ على قاعدة كل من تماثاليه فى متحفى القاهرة وأوكسفورد نقشاً ينبئنا فيه عن انتصاره على أعدائه وقتله ٤٧٢٠٩ من الأعداء الشماليين الذين ربما يكونون قد هجموا على الصعيد ، كما نعرف من النقوش التى على بعض أوانيه .

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله عن صلة « خع سخم » بالملك « پرى – إب – سن » ، وهل كان ابنه أو أنه كان أميراً من الأمراء أو كان زعيماً من الزعماء ، اضطر لمواجهة ثورة عاتية فى الشمال ضد ما قام به « پرى – إب – سن » ؟ والجواب على هذه الأسئلة لا يعدو حد التخمين ؛ لأن ما لدينا من وثائق من ذلك العصر لا يساعدنا مطلقاً على الإجابة ، وإذا رجعنا إلى مانيتون لا نجد فيه إلا قبساً ضئيلاً ، فإذا صح أن « خع سخم » هو الذى سماه مانيتون « سيسو خريس » ، فإنه كان قارع الطول إلى حد كبير (١) ، وربما كان طول قامته مصحوباً بقوة بدنية ، ساعدته فى زعامته وفى حروبه التى شنها لإعادة النظام إلى البلاد ، وحربه ضد سكان ليبيا إلى الغرب من مصر.

ومن الجائز أن ما قام به من أعمال أحدث رد فعل جديد ، وشاءت الظروف أن يلى عرش مصر بعد « خع – سخم » ملك قوى حازم أراد أن يرضى كلا من الشمال والجنوب ويضع حداً لتلك الفتنة فاتخذ لنفسه شعاراً ، المعبودين حورس وست مجتمعين ، وكان يضعهما سويا فوق اسمه ، ذلك هو الملك « خع سخموى » ، الذى تقدمت مصر فى عهده تقديم كبيرا زاد فيه استعمال الحجر فى المبانى ، وأستقرت

مصر على أوضاعها الفنية الخاصة بها ، واستكملت أكثر مقوماتها .

امتاز عهده بالهدوء والتقدم فى جميع مرافق الحياة وكانت زوجته تسمى « نى – ماعت – حپ » وهى أم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، ولكن قبل أن ننتقل إلى زوسر وإلى الأسرة الثالثة يحسن بنا أن نقف قليلا لنعرف مدى ما أحرزته مصر فى ذلك العهد من تقدم ، وإلى أى حد وصلت .

كشفت حفائر أبدوس وهيراقونپوليس وسقارة وحلوان وطرخان وغيرها ،[1] عن كثير من آثار ذلك العهد ولهذا لا تعوزنا الآن المادة العلمية اللازمة لدراسة مدى تقدم فنون المصريين وصناعاتهم فى تلك الأيام ، كما وصلت الينا أيضاً بعض الآثار التى تحوى كتابات ، وأكثرها أختام أسطوانية أو طبعات أختام فوق سدادات الأوانى المصنوعة من الطين ، وهى لا تحتوى عادة إلا على أسماء أصحابها ووظائفهم ، وفى حالات قليلة تشير إلى بعض الضياع أو المبانى ، وغير ذلك من الأعمال التى تتصل بأعمال الموظفين أصحاب تلك الأختام . وهناك أيضاً كمية كبرى من النقوش على تلك اللوحات الصغيرة المصنوعة من العاج والتى توجد إلى جانب بعض الأوانى فى مقابر الأسرة الأولى سواء فى أبيدوس أو فى سقارة ، وكذلك بعض الألواح الأردوازية الكبيرة ورؤوس الدبابيس الخاصة بهؤلاء الملوك ، وكذلك بعض الأوانى الحجرية وما هو مسطر على حجر پالرمو من معلومات عما أبقى عليه الزمن من أسماء هؤلاء الملوك .

ويمكننا من دراسة تلك الأشياء معرفة أسماء الملوك وأسماء بعض موظفيهم ووظائفهم ، ويمكننا أيضاً معرفة أسماء بعض القصور والمعابد والآلهة الذين شيدت لأجلهم ، ومعرفة ما قام به بعض الملوك من أعمال خاصة مثل شق الترع أو إنشاء السفن أو الاستيلاء على بعض المدن ، والإحتفال ببعض الأعياد . كما نرى فيها أيضاً رسم بعض المعابد أو الهياكل التى أقامها الملوك فى ذلك العهد المبكر . وإذا أردنا الوقوف على مظاهر الفن أو الحضارة فى مصر ، أو أردنا الإلمام ببعض نواحى الحياة بين الشعب ، فإن هناك من القطع الأثرية مما ظهر فى حفائر حلوان وسقارة وأبيدوس ما يكفى لإعطاء صورة عن مدى التقدم الذى أحرزه الفنان المصرى منذ الأيام السابقة على ظهور الأسرة الأولى . فتلك الحلى وتلك الأوانى الجميلة الصنع ، وتلك الأدوات المنزلية المصنوعة من العاج أو قطع ألعاب التسلية أو الصناديق المزخرفة ، تثبت كلها ذلك التقدم فى الفن وفى مظاهر الحياة الخاصة .

وإذا درسنا مخلفات ذلك العصر نستطيع أن نعرف شيئاً غير قليل عن بعض أعيادهم وطقوسهم في بعض الاحتفالات ، كما نستطيع أن نعرف أيضاً ، ولو إلى مدى محدود ، شيئاً عن دياناتهم . ونعرف أيضاً الكثير عن تنظيم إدارات الحكومة ، وإذا درسنا بعض المصادر التي كتبت في عصور متأخرة نرى قدماء المصريين يشيرون إلى بعض ملوك الأسرتين الأولى والثانية ويربطون بين أسمائهم وبين القيام بكتابة بعض البرديات المهمة في الطب أو في الحكمة .

كانت الأجيال القليلة السابقة على بدء الأسرة الأولى ، وتلك القرون الأربعة التي حكم أثناءها ملوك الأسرتين الأولى والثانية هي الفترة التي تفاعلت فيها جميع عناصر الحضارة في مصر ، كانت هي فترة التجارب والمحاولات التي قضاها شعب فتى في مستهل أيام حضارته حتى استقر أخيراً على أوضاع خاصة ارتضاها لنفسه ووجد أنها تعبر تمام التعبير عما يريده ، سواء في الدين أو في الفن أو في الحياة بوجه عام ، فاستمسك بها وحافظ عليها ؛ لأن أساسها كان قويا متينا ثابت الأركان . فلما تقدمت به مدنيته استطاع أن يرتفع بالبناء فوق ذلك الأساس فلم يخب ظنه فيه ، وعندما اتصل بغيره من الحضارات فيما بعد لم يجد من بينها ما يلائم حياته أو ذوقه خيراً مما كان لديه فزاده ذلك استمساكاً به .